صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

سيكولوجيا الفوضى المروريـــــة في المدينـــــة العراقيـــة

فارس كمال نظمي
جامعة بغداد

ها قد مر عام ونيف على انتهاء الحرب، تلك اللحظة الفاصلة بين عصرين، والعراقيون لم يعثروا بعد (في ظل غياب سلطة القانون) على طريقة ينظمون بها تلقائياً فوضاهم المرورية في شوارع مدنهم المرويّة بـ((الدم والشمس والحزن)) كما يقول (مظفر النواب).

نقصد بالفوضى المرورية: العشوائية واللانظام واللاأعراف واللاقانون، التي صار يتميز بها سلوك أغلب شاغلي الطرقات العامة في مدننا العراقية، من سواق مركبات عامة أو خاصة، ومن عربات يجرها البشر أو الحيوانات، ومن مارة راجلين على أقدامهم، ومن باعة متجولين يفترشون معظم المساحات المخصصة للمركبات، مما أدى إلى إعاقة تامة أو شبه تامة لحركة المرور الطبيعية. ثمة رؤى متنوعة في مستوياتها التحليلية، يمكن الاستعانة بها لتحديد أسباب هذه الفوضى وأبعادها الحضارية والاجتماعية. فالبعض يرى أنها ((فوضى حتمية، كان لا بد منها بعد عقود من الحروب والمجاعات وإشاعة اللاعقلانية واللامعيارية في كافة نواحي الحياة)). والبعض يجادل بأنها ((فوضى مفهومة ومبررة في ظل الاحتلال وتآكل مؤسسات الدولة وغياب سلطة القانون)). ورأي آخر أكثر شكوكية يقول: ((إنها خطة أمريكية لتقطيع أوصال المدن، وإغراق سكانها بالفوضى، وقتل التواصل النفسي بين الإنسان والإنسان، وتشويه ذكريات العراقيين الجميلة عن رموزهم المكانية والحضارية، وصولاً إلي تعطيل فعلهم الجمعي التقدمي نحو تحديات الحياة الجديدة)).

لكلٍ من هذه الرؤى منطقه الخاص ومرجعيته في التحليل والتشخيص والتفسير، مما يصعب رفض أي رؤية منها أو تفضيلها على غيرها، ذلك أن ظاهرة الفوضى المرورية في العراق تجاوزت حدود التصديق في غرائبيتها وتعقيدها ولا عقلانيتها، مما يحتم عدم تبسيطها أو اختزالها أو ردها إلى عامل واحد منفرد، بل ينبغي تحليلها في موشور التجريد للكشف عن صلتها الجدلية ببضعة عوامل أساسية، تتمايز عن بعضها وتكمّل بعضها البعض في آن واحد، هي:

١. عامل سياسي: يتمثل بالاحتلال الأمريكي للعراق وما رافقه من سقوط النظام السياسي السابق، الذي ترك وراءه فراغاً أمنياً وقانونياً ومؤسساتياً هائلاً، جعل الفرد العراقي عاجزاً عن تطبيق روح القوانين ومضامينها طواعية، ما دام شكلها المتمثل بالرقابة القاسية المباشرة لرجل الأمن بات غائباً.

٢. عامل اقتصادي: يتحدد بتدفق حوالي (750) –ألف سيارة مستعملة خلال أقل من عام*، إلى شوارع المدن العراقية المحدودة الاستيعاب من دول مجاورة، تعبيراً عن فلسفة اقتصاد السوق وعولمة رأس المال وزوال الحواجز الجمركية،وإنقاذاً لبعض مصانع السيارات الموشكة على الإفلاس في الغرب،وامتصاصاً لملايين الدولارات التي اقتطعها الرعاع من لحم دولتهم العراقية في خضم أعمال السلب والنهب لحظة انهيار النظام السياسي السابق وإيداعها في أرصدةٍ وراء الحدود متخمة بدماء الفقراء،وإحياءاً لنزعة استهلاكية وسواسية ضمرت لدى العراقيين بعض الشيء بفعل سنوات طويلة من الحصار الاقتصادي.

٣. عامل عمراني - بيئي: يتضح بغياب التخطيط خلال الحقبة السياسية السابقة والحالية لأي شكل من أشكال التنسيق بين النمو السكاني وما يتصل به من الحاجة المتزايدة لوسائل النقل، وبين معمارية المدن وما يتصل بها من تصميم سعة الشوارع وتنفيذ مشاريع الأنفاق والجسور والمترو، وبين الالتزام بمعايير المحافظة على البيئة من التلوث المناخي الذي يسببه تزايد أعداد السيارات. فكان التدفق المفاجيء لهذا الكم الهائل من السيارات خلال مدة زمنية قصيرة، بمثابة إعصار أجهز على ما تبقى من البيئة الحضرية العراقية المخربة أصلاً.

٤. عامل نفسي اجتماعي: يتمثل في النظر إلى هذه الفوضى المرورية بوصفها:

نتاجاً لعدد من ((الخصائص النفسية)) المستحكمة في شخصية الفرد العراقي، بمعنى إنها مسطرة نفسية يمكن أن يقاس عليها مقدار ما يمتلكه هذا الفرد أو ما يفتقده من تسامح، وإيثار، وتفكير عقلاني، وروح مواطنة، وشعور بالمسؤولية الاجتماعية، واحترام للقانون، ووعي بالمصلحة العامة،

ب) و/أو. . كونها شكلاً من أشكال ((السلوك الجمعي)) المتصل بسيكولوجية الحشود المنفعلة والهائجة.

إن تفسيراً شاملاً لهذه الظاهرة يتطلب صهراً للعوامل الأربعة السابقة الذكر في سبيكة فكرية واحدة تمتزج فيها مستويات التحليل في إطار تحليلي متماسك. وهو أمر يقع خارج متطلبات هذه السطور وحدودها، مما يستدعي منا التركيز على العامل النفسي الاجتماعي بوصفه ميدان تخصصنا، دون إهمال ذكر العوامل الثلاثة الأخرى عند الضرورة. وسنجعل مبضع التشريح النفسي يغور مرتين في جسد هذه الفوضى السلوكية ليكشف لنا في كل مرة عن نسيج من أنسجتها:

سيكولوجية إذا لم تكن ذئبا (أو النسيج الفردي للفوضى)

أشار الدكتور (علي الوردي) في كتابه ((دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)) إلى أن ((طابع التغالب)) هو أحد خصائص الشخصية العراقية، ضمن تحليله لصراع البداوة والحضارة في هذه الشخصية. ولسنا في إطار التبني لهذه النظرة السوسيولوجية، إلا أن الملاحظة العلمية الدقيقة لما يجري في شوارعنا اليوم يجعلنا لا نستطيع أن نتجاهل نفاذ بصيرة أستاذنا الوردي. فعندما ينهمك كل سائق تقريباً في التقاطعات المرورية الملتحمة بالسيارات، بمحاولة التقدم ولو لشبر واحد إضافي داخل الحشد، مستخدماً كل مهاراته العدوانية في السياقة (لفظاً وسلوكا)، حتى لو أدى ذلك إلى انغلاق السير لساعاتٍ بوجهه أو بوجه غيره من السواق، ودون أدنى مراعاة لامكانية التريث لثوان أو لدقائق لفسح المجال لباقي المركبات في الاتجاهات الأخرى للمرور تباعاً بما يحقق انسيابية السير للجميع، ففي الغالب إننا أمام حالة متقدمة من سيكولوجية ((إذا لم تكن ذئباً أكلتك الثعالب))، المصنفة بوصفها واحدة من أهم بنود شريعة الغاب. ومع ذلك ، يجدر بنا التريث قبل المصادقة على هذا الحكم النفسي الصارم على الفرد العراقي، إذ ينبغي أن نجيب أولاً عن هذا السؤال: ((هل تعزى نزعة التغالب هذه لدى السائق العراقي إلى دافع أناني ذي صبغة انفعالية مضمونها الفظاظة والعدوانية وعدم الصبر، أم تعزى إلى جهله بنيات السواق الآخرين المحاذين له في الشارع؟)).

تشير التنظيرات الحديثة في علم النفس الاجتماعي إلى وجود خاصية نفسية واسعة الانتشار وذات اثر حاسم في تحديد بعض مظاهر السلوك الاجتماعي، هي ما يطلق عليه بـ((الجهل بتعددية آراء الآخرين))، أي جهل الفرد بالاتجاهات الحقيقية للناس حوله نحو موضوعات اجتماعية لها أهمية قصوى مشتركة. فالنتائج الانتخابية الساحقة التي يحققها الرؤساء في الأنظمة الاستبدادية مثلاً، لا تعزى جميعها إلى ((خوف)) الناخب ورعبه من إبداء المعارضة فحسب، بل أيضاً إلى اعتقاده (بسبب التزييف الإعلامي وعمليات غسل الدماغ الجمعية) بأن معظم الناخبين الآخرين لهم رأي مؤيد للرئيس المرشح، ولذلك لا جدوى من امتلاكه رأياً مخالفاً ما دامت الأغلبية الساحقة ترى عكس ذلك. ولو افترضنا أن غالبية الناس في هذه المجتمعات يمرون بهذه التجربة النفسية الخادعة في مواقفهم من السلطة، لأصبح مفهوماً ومفسَّراً واحد من أهم أسباب إذعانهم السلبي لأوضاع تقع على الضد تماماً من اتجاهاتهم الحقيقية. وقد ينطبق هذا المفهوم إلى حد كبير على السلوك الفوضوي للسائق العراقي أيضاً، إذ يمكن تفسير نزعة ((التغالب)) لديه، والتي قد تصل حد العنف والاعتداء، في ضوء جهله وإنكاره بأن للسواق الآخرين اتجاهاً تسامحياً نحوه، متوهماً أن جميعهم ((ذئاب)) في دوافعهم، وينبغي عليه أن ((يتغدى بهم قبل أن يتعشوا به)). ومما قد يبرهن على صواب هذا التفسير، أن أي سائق مركبة عندما يُطلب منه أن يقدم اقتراحاته ونصائحه للسواق الآخرين بهدف التخفيف من الفوضى وتنظيم حركة المرور، نراه يطلب منهم التحلي بالهدوء والتسامح والتساهل والتخلي عن المصلحة الذاتية الضيقة حفاظاً على المصلحة العامة، وكأنه بذلك يقر بافتقاد الآخرين لهذه الخصائص الإيجابية، التي يعتقد انه الوحيد الحائز عليها. وهكذا، يمكن أن نعزو جزءاً كبيراً من نزعة ((التغالب)) لدى السائق العراقي إلى جهله بوجود نيات طيبة لدى السواق الآخرين، بدلاً من عزوها إلى دوافع أنانية انفعالية خالصة لديه، بدليل أن العديد من هؤلاء السواق (العدوانيين) كثيراً ما يتخلون عن أنانيتهم ويتخذون مواقف سلمية و إيثارية مع الآخرين بمجرد شعورهم أن هؤلاء الآخرين يثمنون ما لديهم من صفات التعاون والشهامة، معبّرين عن هذا التثمين بالكلام المباشر أو باستخدام إشارات الامتنان باليد أو الرأس. ومن الواضح أن انتشار نزعة الشك هذه بنيات الآخرين، إنما تعود جذوره إلى أزمة الثقة الشاملة التي يعانيها المجتمع العراقي.

سيكولوجية الحشود الهائجة

(أو النسيج الجمعي للفوضى)

السلوك الجمعي Collective Behavior مصطلح يراد به توصيف العدوى السلوكية بين أفراد الجماعة الواحدة، أي تماثلهم في الانفعالات والأفكار والتصرفات. وغالباً ما يكون هذا السلوك محملاً بالانفعالات الغريبة والشاذة والحادة، مما يجعل من الصعب التنبؤ بمساراته، إذ تظهر لدى الأشخاص المنخرطين فيه صفات مختلفة كل الاختلاف عن صفاتهم الشخصية الاعتيادية في حالة انفرادهم بأنفسهم بعيداً عن الحشد. والسلوك الجمعي قد يبدو للوهلة الأولى غير خاضع لمعايير محددة واضحة، إلا أن البحوث النفسية الحديثة أثبتت أنه ليس تلقائيا أو مشوشاً، بل يخضع لمحددات اجتماعية وثقافية تعمل على إطلاقه. وهو يتضمن في معناه الشامل :انتشار الشائعات، والتغيرات في الرأي العام، والموضة، والتقليعات، وأعمال الشغب من نهب وسلب وحرق، وحالات الهلع أثناء الحروب والزلازل والأوبئة والحرائق، وكل أعمال القتل والعنف ذات الطابع الجمعي، وأي جمع محتشد يعتمد في استمراره على تبادل التأثيرات غير العقلانية لسلوك الأفراد المشاركين فيه. وهناك من يصنف الحركات الاجتماعية والنقابية والتجمعات السياسية والثورات على أنها شكل من أشكال السلوك الجمعي القائم على أسس فكرية واجتماعية ذات طابع عقلاني له أهدافه ومنطلقاته.

ويمثل السلوك الجمعي الشكل الأكثر تطرفاً للعلاقة بين الفرد والوضع الاجتماعي الاقتصادي المحيط به، إذ غالباً ما ينبثق أثناء الأزمات ومراحل التغيرات الاجتماعية المهمة. وقد تنوعت التنظيرات المفسرة لأسباب هذا السلوك، ولو أردنا توظيف بعضها للتأمل في الفوضى المرورية الحالية للمدينة العراقية، بوصفها سلوكا ذا نسيج جمعي لا فردي، لأمكننا استنتاج أمرين بشأن هذه الفوضى:

إنها نتاج سلوكي لحشود هائجة تتحرك كتلياً ولا شعورياً، بتأثير التفريغ الانفعالي لمشاعر عدوانية مكبوتة أوجدها ((الإحباط))Frustration النفسي والاجتماعي لفرد عاش أعز سنوات عمره في ظل الحروب والحصارات (المتوسط الحسابي لعمر السائق العراقي قد لا يتجاوز سن الخمسين)، إذ لم تتوافر بعد مسارب سوية لمعالجة هذا الإحباط، بل انه يزداد يومياً ويحتقن بفعل التدهور المستمر للوضعين الاقتصادي والأمني لغالبية المجتمع العراقي.

و/أو ...إنها نتاج لازدواج المعايير في الشخصية العراقية، مما أدى إلى حالة من ((اللافردانية))Deindividuation أي انتفاء الهوية الفردية) صار يعيشها السائق العراقي في شوارع مدينته، تمنعه من الوعي بذاته، وتجعله لا يشعر بكيانه المستقل من مشاعر وأفكار، فيتعذر عليه مراقبة سلوكه، ويندفع في سلوكيات غير عقلانية نتيجة غياب القدرة على التوجيه الذاتي،بمعنى أدق، صار يترك هويته النفسية الخاصة به في بيته بكل ما تحمله من ضبط ذاتي ومحددات عقلانية للسلوك، ويخرج إلى المدينة مستغرقاً في حشودها الفاقدة لشاعر المسؤولية والاهتمام بالمصلحة العامة. فقد يكون هذا السائق أباً صارماً في بيته، يطبق أدق معايير الالتزام والانضباط مع أفراد أسرته، لكنه سرعان ما يصبح شخصاً منفلتاً وعشوائياً في سلوكه بمجرد أن يتوغل بسيارته في زحام المدينة. ولعل السبب وراء هذه الازدواجية ، هو تلك الفجوة القيمية التي جرى تعميقها خلال الحقبة السابقة بين الحياة الخاصة والحياة العامة للفرد العراقي. فقد ((تعلم)) هذا الفرد الطاعة العمياء الممزوجة بالخوف، لكل ما يصدر عن السلطة السياسية والاجتماعية، حتى أصبح سلوكه في الحياة العامة ((مشروطا)) في معظمه بالرموز العقابية خارج الذات، لا بالاقتناع الضميري داخلها. وعندما غابت هذه الرموز العقابية بعد احتلال بغداد في نيسان ٢٠٠٣م، واضمحلال سطوة المؤسسة الأمنية إلى حد بعيد، اتضح أن الضمير الجمعي العقلاني بات في حالة سبات في الأماكن العامة، ابتداءً من جرائم السلب والنهب والحرق لمؤسسات الدولة والمجتمع، وانتهاءً بالفوضى المرورية الغامرة.

ما الحل؟

سواء تبنينا النسيج الفردي أو النسيج الجمعي في تشريح فوضانا المرورية، أي سواء قلنا أن سبب هذه الفوضى هو التباس يبديه سائق المركبة في إدراكه لاتجاهات السواق الآخرين ودوافعهم نتيجة شكه بسلامة مقاصدهم ونياتهم، أو قلنا هو سلوك ذو طبيعة حشدية هياجية نتيجة غياب الرقيب الخارجي (أي السلطة) وتهميش الرقيب الداخلي (أي الضمير)، ففي كلتا الحالتين يمكن التأشير أن ظاهرة الفوضى المرورية في المدينة العراقية لم تنتجها أحداث ومتغيرات آنية فحسب، بل أنتجتها بالأساس الحروب، والأزمات الاقتصادية الطاحنة، و إحلال سياسة أقصى القوة بدل منطق الإقناع التربوي، وتغييب النهج العلمي في تسيير شؤون البلاد، منذ أن استولت العقلية العسكريتارية العقابية على مقاليد الحكم في العراق منذ ما يقارب نصف قرن وحتى اليوم. ولذلك ليس من المتوقع أن يعثر قريباً شاغلو شوارعنا من سواق ومارة على أسلوب طوعي لتنظيم واقعهم المروري وفق أسس المصلحة العامة المشتركة، بل لا بد من إعادة فرض قوانين المرور بأبعادها الثوابية والعقابية معاً على أسس تربوية وإنسانية، بالتوازي مع عملية إعادة بناء ثقة الفرد بمؤسساته وبني مجتمعه.

وهي عملية يبدو أن التوجه الحالي في إدارة شؤون البلاد، لا يزال مصراً على تجاهلها، بل حتى تكريس نقائضها في حالات كثيرة. وهذا يعني أن هذه النزعة الفوضوية سواء كانت قائمة على سيكولوجية (إذا لم تكن ذئباً)، أو على سيكولوجية (الحشود الهائجة)، ستظل خاصية (كامنة أو ظاهرة) في الشخصية العراقية، ما لم يتم إعادة تجسير الثقة بين مختلف إحداثيات هذا المجتمع، مع التوكيد على أن يبدأ هذا التجسير أولاً ضمن إطار علاقة الحاكم بالرعية، ذلك أن نوع ((الأنموذج)) Model الذي تطرح السلطة شخصيتها من خلاله، يسهل تعميمه واكتساب خصائصه من فئات مجتمعية كثيرة، مما يؤثر مباشرة في تقوية أواصر النسيج الاجتماعي أو إضعافه على حد سواء، تبعاً لنوع الرؤية الأخلاقية التي يبشر بها ذلك الأنموذج.

أكاد أعرفـك من خـــط كتابتـــك

سلمان عبد الواحد كيوش/ طالب دكتوراه
علم النفس - كلية التربية - ابن الهيثم

لك شكل خارجي، ولي آخر. فربما كنت طويلاً ممشوقاً بجسد متناسق، وربما كنت قصيراً أو أميل إلى القصر. وربما كان الآخر ذا جسد عضلي يوحي بالقوة، وكان آخر ذا جسد مترهل ينوء بحمل كتل الشحم الزائد. كان هذا التحديد محاولة قديمة لتعيين معالم الشخصية السلوكية بناء على الشكل الجسدي الخارجي، فأعطت للمترهل البدين سمة الانبساط والميل للفكاهة، بينما أعطت للنحيف الطويل سمة غلبة الحزن والميل للعزلة، وبرغم ما أفضت إليه هذه النظرية من جوانب مبدئية صحيحة، إلا إنها الآن لا تعدو أن تكون مجرد تراث في علم النفس، فالطبيعة البشرية ترفض التقسيم الحاسم وتفضل التدرج والانسياب. كانت هذه المحاولة قد سبقت بمحاولة جالينوس (١٢٩ - ١٩٩م) حين وضع تصنيفاً لأمزجة الناس حيث قسمهم حسب طبيعة دمائهم إلى أربعة أقسام، دموي، صفراوي، سوداوي، وبلغمي، فصاحب الطراز الدموي يتصف بالتفاؤل والمرح وسرعة الاستثارة فيما يتصف صاحب الطراز السوداوي بالتأمل والتشاؤم وثبات الاستجابة. وهكذا جرت محاولات عديدة تنتهي كلها في نيتها على فهم الإنسان وخلق قدرة ولو متواضعة للتنبؤ بسلوكه. ثم جاءت محاولات أكثر تماسكاً حاولت الإجابة على أسئلة كبيرة من نوع من هو الإنسان، أو كيف يتعلم، أو لماذا يسلك هذا السلوك دون غيره وهكذا. ولأن الإنسان حيوي، فاعل ومتفاعل، هائل الطاقة ولا محدود فإننا لن نجد نظرية صحيحة وأخرى خاطئة برغم وجود التقاطع بين نظرية وأخرى أحياناً. ولأننا نفتقر إلى النظرية الجامعة المانعة التي تفسر الإنسان وحركته ونشاطه، لذا شبهت النظريات بحزم الضوء المسلط على عتمة هرم الإنسان متعدد الأسطح والوجوه.

ومن بين المحاولات التي دأبت على بناء أسس معرفية للشخصية بناء على معطيات الإنسان هي تلك التي اعتمدت خط الكتابة اليدوي كمعيار (بوحي) يغور الإنسان ويستكنه معالمه. يجب الاعتراف أن وجهة النظر هذه ما زالت في المهد ولم تشبع دراسة وتمحيصاً لترتقي إلى مصاف النظرية أو حتى جانب مستقل من جوانب علم النفس برغم أن كتاباتنا اليدوية من أوضح وأشيع ممارساتنا الحياتية اليومية وبرغم أن خط الكتابة اليدوي ينطوي على كثير من الأنشطة الفسلجية العضوية والجوانب المزاجية والوجدانية.

تتوضح أهمية دراسة الموضوع أمامنا في الإجراء التالي: لو طلبنا من مجموعة متجانسة من الناس، وليكونوا مجموعة من الطلبة في فصل دراسي جامعي على سبيل المثال، ووزعنا عليهم أوراقاً من نوع واحد وأقلاماً من نوع واحد وأجلسناهم على مناضد متشابهة، وأمليناهم مجموعة من الكلمات بسرعة معقولة.

ما الذي سنحصل عليه؟

سنحصل على أنواع خطوط تختلف اختلافاً بيناً في الجودة. ولكن كيف نستطيع تصنيف هذه الخطوط. إلى جيدة، أو جيدة جداً، أو ممتازة، أو سيئة أو سيئة جداً؟ إن افتقارنا لمعيار دقيق موضوعي نحتكم إليه هو جوهر المشكلة. فعلى عموم الوطن العربي، وربما العالم، لا وجود لمثل هذا المعيار على حد علمي. إن المعيار الموجود والمعروف لدى الخطاطين ذو مهمة مختلفة تماماً، فمن السهل على الخطاطين الحكم على الخط بالحسن والرداءة وبموضوعية عالية تبعاً لقواعد الخط العربي ذي المساحة كما يسمى، وهذه القواعد، كما هو معروف، تختلف تبعاً لنوع الخط إن كان ثلثاً أو نسخاً.. الخ.

وما نمارسه، بوجه عام، من أحكام أولية على خطوط الكتابة اليدوية إنما هو استعارة لإحكام الخط العربي ذي المساحة. فحين نقول لأحدهم (خطك جميل) إنما نسقط على خطه أحكامنا المستقاة من قواعد الخط العربي، ربما لأننا لا نجد، أو بالأحرى لا نعرف سواها.

إن قولنا (خطك جميل) أو (خطك سيء) فيه من العمومية الشيء الكثير، فالكتابة وبرغم اقترابها الشكلي من قواعد الخط وتأثرها بأصوله إلا إنها تبقى شيئاً ذاتياً تماماً لأن فيها الشيء الكثير من مزاجنا، اقترابنا أو ابتعدنا من ذواتنا، فهمنا للعالم ولقيمه الجمالية، قلقنا وإحساسنا بالتهديد أو بالأمان، وما إلى ذلك من الجوانب المكونة لشخصياتنا، خاصة إذا عرفنا أن ثمة طقوساً كتابية مصاحبة تأخذ شكل العادة أو التفضيل اللاواعي. فمنا من لا يستسيغ الكتابة بالقلم الرصاص، بينما يجد أخرون ضالة كتابتهم الجمالية فيه، ومنهم من يفضل قلم الحبر دون غيره.. وهكذا تبعاً لمواصفات في هذا النوع من الأقلام أو ذاك. وكذلك الأمر مع الورق إن كان مخططاً أو بلا خطوط. إن هذه الاعتبارات ما هي إلا إسقاطات للاوعي الكاتب كما يحصل عندما نختار لوناً أو شكلاً لبضاعة أو شيء دون غيره.

إن ما يزيد الموضوع اتساعاً وتعقيداً اكتشافنا إننا نكتب بخط حيناً نشعر معه إننا راضون عن أنفسنا، فيما لا نجد هذا الرضا حيناً آخر. إن هذا يقودنا، كحكم أولي إلى أن الحالة المزاجية الآنية لحظة الكتابة هي الفيصل. ولكن السؤال المهم هو: كيف ينعكس طيب المزاج أو تعكره على آلية رسمنا للحرف أو الكلمة؟ إن كلمة مزاج هنا كلمة عائمة قد تنصرف إلى أكثر من معنى، فمثلاً حين ننشد إلى موضوع الكتابة أو مادتها كأن نكتب شعراً أو رسالة إلى صديق حميم أو ربما صديقة يداهمنا إحساس ضاغط بالمسؤولية إزاء خطوط كتابتنا، وربما ألفينا خطنا يختلف نسبياً فيما لو حررنا صكاً لأحد الدائنين أو أجبنا عن سؤال في امتحان لمادة مقيتة.

تبدو الإجابة عن السؤال سهلة، فما دمنا نحب شيئاً أحسنا وأجدنا صنعه، والعكس صحيح، لكن المهم هو كيف ينعكس هذا الحب أو الكره ويترك آثاره على الكتابة كآلية؟ إنه سؤال يبدو تفصيلياً جداً وعملية إجابة علم النفس عنه بشكل حاسم قد لا تبدو قريبة.

وعلى الجانب الشخصي، كانت نقطة البداية بهذا الموضوع ومحاولة الإبحار فيه هي حالة تردي خطوط الطلبة بشكل عام. حاولت التوصل إلى برنامج يمتاز بالاقتصاد في الوقت والجهد يهدف إلى تحسين خطوط الطلبة بشكل عام وقمت بتطبيقه مبدئياً أثناء تدريسي لمادة الخط العربي في واحد من معاهد المعلمين. فوجئت بالاستجابة السريعة للطلاب المميزين بجودة الخط، بينما لم يستفد منه ذوي الخطوط السيئة. قادني هذا الاستنتاج إلى الاعتقاد أن الإحساس بجدوى البرنامج والتنمية التي ينتهي عندها يكاد أن يكون معدوماً لدى ذوي الحظ السيء، فالكتابة لديهم لا تتعدى كونها وسيلة اتصال وإنها، على حد زعمهم، شيء موروث لا سبيل إلى تغييره. وعليه، فالأمر يتركز في درجة الاقتناع بالجمال والقبح والإحساس بهما وليس شيئاً موروثاً كما ادعى بعض طلبتي!

ومن الأمور التي استوقفتني أن ثمة علاقة بين رداءة الخط وكثرة الأخطاء الإملائية والنحوية، أرى أنه من الموضوعات الحيوية، ربما كان موضوعاً لمقال مستقل.

حاولت التأسيس لتقسيمات أولية لخطوط الكتابة اليدوية ووضعت إزاءها ملامح أصحابها الشخصية. قد لا يمت هذا الجهد إلى العلم بصلة، فهو أقرب ما يكون إلى الحدس منه إلى الدراسة النفسية التحليلية العلمية، أشعر أنها بحاجة إلى المزيد من تسليط الضوء والسبر، والتقسيمات هي:

١.كلمة كبيرة مقابل كلمة صغيرة:

يصلح هذا التقسيم مبدئياً للتفريق بين الخط الذكوري والأنوثي، فقد (لاحظت) أن النساء يملن إلى صغر حجم الكلمة بالمقارنة مع الذكور.

٢.كلمات متراصة مقابل كلمات متفرقة:

فمنهم من يجعل السطر الواحد أرضاً لعدد من الكلمات مقابل عدد أكبر لدى البعض الآخر. وهذا لا يعني صغر أو كبر حجم الكلمة، وإنما يعني امتداد المساحات الفارقة بين الكلمة والتي قبلها والتي بعدها. قد يشير هذا التقسيم إلى الشخصية التسامحية لدى الذي يفارق بين الكلمات إزاء شخصية متصلبة لدى من يقارب بينها. وقد يصلح أيضاً كمعيار بين صفتي التقتير والإسراف.

٣.كلمات يغلب القوس على زواياها مقابل كلمات حادة الزوايا:

يبدو هذا التقسيم واضحاً في طريقة رسم الحروف الصاعدة كالألف واللام الوسطيين والهاء أو التاء المربوطة وغيرها. قد تصلح كثرة الزوايا كمؤشر إلى الصرامة والجدية والفطنة واستغلال الحياة إلى أقصى درجة، أما غلبة الأقواس فتوحي إلى الشفافية والسلاسة وقلة أو انعدام الحزم.

٤.سطور نازلة وسطور مرتفعة متعرجة وسطور مستقيمة.

يهتم هذا التقسيم بالبنية الكلية للكتابة ونجده واضحاً في الكتابة على الورق غير المخطط. توحي السطور النازلة بضالة الطموح والصنعة تقابلها السطور التي ترتفع فتؤشر إلى الامتلاء بالمطامح التي قد تصل إلى النرجسية. أما السطور المتعرجة فتوحي بحرص صاحبها على الاستقامة، غير إن هذا الحرص لا يتعدى الرغبة. أما ذوي السطور المستقيمة فيميلون إلى التوافق والحرص الاستثنائي على احترام مشاعر الآخرين.

٥.حروف متشابهة مقابل حروف متغايرة.

يتوضح هذا التقسيم بالتشابه في طريقة رسم الحروف دائماً، فطريقة رسم الهاء الأخيرة واحدة وكذا الحال مع بقية الحروف التي تحتمل أكثر من رسم يقابلها تنوع في رسم الحروف. قد يؤشر هذا التقسيم إلى الغزارة والثراء الوجدانيين والطلاقة في وضع القرارات لدى من يرسم الحروف بطرق مختلفة وقد يشير إلى الثبات في الرأي ومحدودية الإحساس بالإنطلاق والفقر الوجداني والجمود لدى من يرسمون الحروف متشابهة.

٦.غلبة الشاعرية إزاء صرامة الوضوح.

تميل بعض الخطوط إلى الغنائية أو الشاعرية لو جازت التسمية، فهي جميلة بطريقة خاصة. فتجد (التون) أو اختلاف الوقع في الشدة والليونة داخل الحرف الواحد أو الكلمة الواحدة. يعكس هذا النوع من الخطوط النادرة رقة وشاعرية وميلاً شديداً وانحيازاً كاملاً لقضية الجمال ورهافة حس وإقبالاً على الحياة وتلمس مواطن السعادة في الأشياء التي قد لا تغري الكثير من الناس، إن هذا النوع من الخط يتجاوز الوضوح، فلا يعود همه منصباً عليه لأنه متوفر كنتيجة ثانوية، ففايته الجمال أولاً، وتجد إزاءه خطا يجعل جل همه الوضوح فيعطي للحرف حقه من التشكيل خاصة عند الحروف التي قد تساء عملية قراءتها، فالراء مختلف بوضوح عن الدال والباء مختلف عن الياء والفاء لا يشبه القاف وهكذا. يحرص صاحب هذا الخط على أن يكون واضحاً مفهوماً لدى الآخرين، لا يريد غمط حق أحد لأنه لا يريد أن يغمط حقه.

تبقى عملية التصنيف أو التقسيم هذه مجرد استبطان أو تأمل، ربما افتقرت إلى السند العلمي. وتبقى كذلك مشروعاً مفتوحاً قابلاً للتطوير.. وهو أولاً وأخيراً محاولة.